حجة الاسلام : الامام الغزالي

عالماً في الاخلاق وفيلسوفاً

١ — الغزالي عالماً في الاخلاق

مصادرنا لهذا المبحث عدا كتابات الغزالي الاصلية وهي مرجعنا الاول ، كتابان : الاول للدكتور زكي مبارك في (الاخلاق عند الغزالي) وهو فريد في بابه . والثاني كتاب الدكتور زويمر Zwemer الذي اسماهُ (مسلم يفتش عن الحق) . ولنا على الكتابين عدة انتقادات ليس هذا مكانها وانما نقول ان الاول تنقصهُ تلك الطريقة العلمية في البحث ، التي تقضي بان يكون للكاتب غاية كبرى يسوق اليها جميع ابحاثهُ الثانوية ، وتحتم عليهِ فوق ذلك نوعاً من الترتيب والتبويب في البحث مهما كان اساسهُ ، وكلا الامرين مما تفقدهُ بتاتاً عند قراءتك الكتاب . واما الثاني ففي الاصل الانكليزي علمي مرتب ، لكنهُ مصبوغ بل مشوه بما للمؤلف من غايات تبشيرية لا يجهلها المطلع على كتاباته ، فلما جاءت الترجمة العربية المشوهة بعنوان (الغواص واللآلئ) ملأى بالاغلاط المطبعية وغير المطبعية زادت في الطين بلة

وبين هذين الكاتبين جدال عنيف مثاره علاقة الغزالي بالانجيل . وقد يحسن ان نعرض للقارئ خلاصة هذا الخلاف . يتفق الاثنان على ان الغزالي طالع الانجيل وتأثر بتعاليمه . الاَّ ان الدكتور زويمر يريد ان يسند هداية الغزالي ورجوعه الى حظيرة الايمان الى تأثير الانجيل . بينما الدكتور مبارك ينكر ذلك ويقول « ان الغزالي لم يضلّ (يريد زهده وتصوفه) الاَّ حين تعلق باهداب الآداب السلبية التي دعا اليها الانجيل » . ونحن نعتقد ان في الرأيين مبالغة ، إذ لم يكن الانجيل سوى كتاب واحد من مئات الكتب التي اطلع عليها الغزالي ، ولذلك يستبعد كثيراً ان يكون لها في حياته ذلك الاثر الموهوم ، اللهم الاَّ اذا اخبرنا عن ذلك هو بنفسه

والغزالي كغيره من مفكري القرون الوسطى في الشرق والغرب ، مصطبغ بروح العصر كل الاصطباغ . ولذلك كان محور تفكيره الحياة السرمدية في الآخرة لا هذه الحياة الدنيا الزائلة . وقد تفشت هذه الروح في بقية مبادئهِ وآرائهِ فاذا أكثر كتاباته متسمة بهذا الاتجاه . فهو يقول « ان الدنيا منزل من منازل السائرين الى الله

تعالى والبدن مركب ، فمن ذهل عن تدبير المنزل والمركب لم يتم سفره»[١] . وما اشاراته الى هذا العالم وكلامه عنهُ كما ترى الا كوسيلة للعالم الآخر . ونتيجة هذا الميل انك ترى الغزالي يهتم بالفضائل الفردية وخصوصاً السلبية التي تنجي منها ، دون ان يعير نصف ذاك الاهتمام بل ولا جزءاً منهُ للفضائل الايجابية التي تعمل على اصلاح المجتمع . والسعيد عندهُ — كما يقول الدكتور مبارك في كتابه المشار اليهِ — من نجا بدينه ولو خسر دنياه

الغزالي وبسكال

ولسنا نلومهُ على مثل هذا المعتقد فهو الشائع عند ذينك اكثر المفكرين نذكر منهم ابا العلاء المعري الشاعر الفيلسوف المشهور . وقد اخذ بهِ المفكر النابغة بسكال Pascal الذي عاش زهاء خمسة قرون بعد الغزالي ، إذ انتحى في الفلسفة سبلاً صوفيًّا اقصدهُ في نفس المرتبة التي انتهى اليها الغزالي . وهو مثلهُ قد ابتدأ حياته بقوة قهارة وهمة لا تعرف الكلل او الملل حتى « ارغمهُ الضعف واضطرهُ العجز الى الرضى بالخمول في ظلال التنسك والزهد »

وقد نشر Miguel Asin استاذ اللغة العربية في جامعة مدريد رسالة بالاسبانية سنة ١٩٢٠ عنوانها (المقدمات الاسلامية لرهان بسكال) اماط فيها اللثام عن كثير من الحقائق الكامنة . فبسكال كان قد اعتنق كثيراً في اوائل حياتهِ بالحساب المتفاوت حتى استقر في صميم دماغه كثير من قواعده . ولذلك حين انتابهُ ذلك التيار السريع الذي اشرنا اليهِ ، وتمكنت من نفس هذا النابغة تلك الهيستريا الدينية الغريبة ، اصبح يرجع بتفكيره الى ماكان قد وقر في نفسهِ واستقر في عقله الباطن من مشاكل الصبا وابتدع على الاثر نظرية في التنسك والصد عن الحياة ما فتئت شعار فريق كبير من المفكرين حتى يومنا هذا [٢]

والحوار في هذه النظرية اصبح مشهوراً . فبسكال يقول : يمكن ان لا تكون الآخرة حقيقة واقعة ، ولكن بما اننا نخاطر حالة تحقيقها ، بالوقوع في شقاء ازلي اعني النار الابدية التي يهددنا بها الدين ، وبما ان ملذات الحياة الدنيا التي يأباها الدين علينا محدودة متناهية ، فالعقل يقضي والحكمة ان نقلع عن هذه المسرات الزائلة

(١) راجع كتابه (جواهر القرآن) طبعة مصر ص١٨

(٢) راجع كتاب كارادي فو (مفكرو الاسلام) ج ٤ ص ١٧٧

لتخلص من عذاب أبدي لا يزول . بشرط ان لا تكون الارجحية متعدمة بتاتاً

وهذا الحوار عينه اتبعهُ الغزالي في كتابه الاحياء (ج ٤ ص ٤٣) مع الدهريين والاطباء والفلكيين وهم الذين ما زالوا في ريب من نفي الآخرة بتاتاً ، فلا يجزمون بعدم وقوعها . فلهؤلاء يقول انهُ لمجرد مثل هذا الشك الضئيل، يملي العقل السليم عليهم بهجران هذه الحياة والعمل للآخرة والاستعداد لها . وهاك فحوى مثاله : رجل عاقل يقدّم لهُ طعام يشتهيه ، لكنهُ يشك (مجرد شك) في كونه مسموماً ، فهل يتناول منهُ لقمة مهما بلغت لذتها ، فيعرّض بنفسه للهلاك ، أم هل يكبح جماح الشهوة الموقتة فينجو من خطر الموت الدائم ؟ !!

وقد أنبرى لنقد هذه النظرية المعروفة برهان بسكال عدد كبير من مفكري العصر، وعلى رأسهم Prudhomme المفكر الافرنسي. وجماع ما تدحض به امران. الاول اتباعك عقيدة او ديناً من الاديان لتردّدك في امر وقوعه لا يمكن ان يسمى ايماناً بالمعنى الصحيح . والثاني انهُ ما زالت هنالك عدة اديان كلها تهدّد بالعذاب لمن شك في الآخرة ، ولا يبلغ الوعيد في اي منها درجة العدم ، فالعقل حينئذٍ يقضي باتباع اكثرها وعيداً واشدها عذاباً !!!

والمؤمنون في نظر الغزالي ثلاث طبقات : منهم من يجعل كل اتكاله على القرآن والسنة ايماناً وهؤلاء الاكثرية الساحقة من الشعب، ومنهم من يطمح لان يرفع عقيدته من الاستسلام الى درجة البرهان ويقين المعرفة ، والى هؤلاء وجّه الغزالي كتاباته التي حمل فيها على الفلاسفة ، ليكفّروا ويتبرؤا ، ومنهم من يسمو على مثل هذه الاعتبارات فيقنع ويؤمن بالقلب والالهام[٣] . والدين في نظامه الاخلاقي ليس مجرد قواعد ومعتقدات ، بل هو في تجاريب الروح واختباراتها الداخلية . ولذلك فالغزالي يطنب في « الاحياء » وفي غيره « الاحياء » من مؤلفاته بذكر القلب وهو عنده عرش العقل ومهد تلك الاختبارات الروحية السامية

طريقته في البحث الاخلاقي

ونضرب هنا مثالاً لطريقة الغزالي في البحث الاخلاقي عن وساوس القلب. وفيه دلالة على ميله للترتيب والتوضيح في اكثر ابحاثه . فهو يقسم بحثه الى خمسة ابواب . يعالج في الاول تسرّب الوسواس الى القلب اما بالاغراء او بتزيين السلطة. وفي الثاني

(٣) راجع كتاب دي بور (تاريخ الفلسفة في الاسلام) ص ١٥٤

الطرق التي يسلكها الوسواس الى القلب كالشهوة والحسد والترف وفي الثالث مشكلة الوساوس المفتعرة وغير المفتعرة وأهم ما يراعى في ذلك الية . وفي الرابع هل تنقطع الوساوس اوقات الذكر ام لا ، فيقول ان لا فائدة للذكر ولا نفع للتعاويذ بدون الصلاح والتقوى . وفي الخامس امكان تحول القلوب من حالة الى حالة ، باسرع من لمح البصر . وفي كل فصل منها شروح واقاضات لا يسمح لنا المقام بعرضها وانما اتينا بهذا القدر اليسير ليتذوّق القارئ الكريم شيئاً من اسلوب الغزالي وامياله

٢ — الغزالي فيلسوفاً

أقرب مؤلفات الغزالي الى الفلسفة كتابه (تهافت الفلاسفة) الذي كتبهُ ايام كان استاذاً في بغداد ، يقضُّ الشك مضجعهُ . وقد ألّف في تلك الاثناء وقبل ان اعتزل بسوريا كما رأيت ، كتاب (مقاصد الفلاسفة) عرض فيهِ آراء الفلاسفة كما هي دون ادنى تعرض . ثم تلاهُ بكتاب آخر لنقض فيهِ تعاليمهم هو التهافت المذكور . وقد كان بودّه بعد ان عرض وهدم تشييد فلسفته الخاصة في كتاب على حدة ، بيد أن عدل عن هذا القصد (بعد أن طرأ عليهِ ذلك الانقلاب الروحي الذي وصفناهُ) الى كتاب ديني فوق كل شيء هو (احياء علوم الدين) . ولا يقتصر «الاحياء» على المباحث الاخلاقية العويصة والموضوعات اللاهوتية الجافة ، ففيهِ ابحاث طريفة جدًّا بالنسبة للوقت الذي كتبت فيهِ ، كالموسيقى واثرها ، والطبيعة البشرية وضعفها ، والراحة وفوائدها وهلمَّ جرًّا

يقول الغزالي في الشك في نهاية كتابهِ (ميزان الاعمال) : «ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات الا ما يشككك في اعتقادك الموروث لتندب للطلب ، فناهيك بهِ نفعاً . اذ الشكوك هي الموصلة للحق ، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال » . وليس هذا مجرد قول او إدعاء إذ فيما عرفناهُ عن حياة الغزالي دليل واضح بان الرجل ابتلى هذا الشك وعمل بهِ قبل ان يدعو اليهِ

الغزالي وديكارت

وتلك هي طريقة ديكارت بعينها ، فقد ارتاب كما ارتاب الغزالي وبقي في شكه زمناً غير قليل . وكما ارتاب الغزالي لنشوء المرء على دين أبيه ، فقد ارتاب هذا الفيلسوف عند ما رأى التقليد شائعاً بين الناس ، مع اختلاف في العادات والمعتقدات . وغنيٌّ عن البيان أن الغزالي قد سبق ديكارت في ذلك بنحو ستة قرون . على ان

الفرق مع ذلك بينهما كبير ، فبينما ترى الغزالي يخرج من تيه شكه « بنور الله الذي لا يعرفهُ العلم » على ما يقول الدكتور مبارك ثم تسعهُ في المنقذ يقول : « ثم لما احسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة لهُ فأجابني الذي (يجيب المضطر اذا دعاهُ) وسهّل على قلبي الاعراض عن الجاه » . ترى ديكارت وقد خرج باساس للعلم مكين . فلجأ ديكارت في النهاية العقل المجرّد عن كل تأثير ، ولجأ الغزالي الايمان بالقلب والاستسلام !

فالغزالي اذن وان لقبناهُ بالفيلسوف اكثر من مرة ، لا يقبل لنفسهِ مثل هذا اللقب لو اتيح لهُ نفسهُ . لانهُ على ما يقول لم يدرس الفلسفة الاّ ليدلّ على مغالط الفلاسفة . ومع ذلك فان Renan الفيلسوف الفرنسي يلقبهُ باكثر فلاسفة العرب ابتكاراً واعمقهم تفكيراً ، ويجاريهِ في هذا الحكم فريق كبير ممن تعمقوا في درس الفلسفة الاسلامية . ويهمنا ان نذكر هنا ان قول الغزالي او ادعاءهُ لم يسلم بهِ حتى الذين عاصروهُ ، كما يشير هو الى ذلك في «المنقذ» حين يتكلم عن الفلاسفة والامامية فيقول : « فجمعت تلك الكلمات ورتبتها ترتيباً محكماً مقارناً للتحقيق واستوفيت الجواب عنها حتى انكر بعض اهل الحق مني مبالغتي في تقرير حجتهم وقال هذا سعي لهم »

الشك في اخلاصه

واما ما دعا الى الشك في اخلاص الغزالي المتصوف فامور ثلاثة لا تخلو من الاهمية: اولها ذلك الانتقال العجيب من عالم متردد الى صوفي مستسلم ، وعظيم الفرق بين الشك والتوكل في الحالتين . والثاني قولهُ في بعض مؤلفاتهِ (كالمضنون بهِ على غير اهلهِ) باخفاء بعض الآراء والنظريات عن العامة من افراد الشعب ومثل قولهِ في جواهر القرآن « وهذه العلوم الاربعة اعني علم الذات والصفات والافعال وعلم المعاد اودعنا من أسرارها ومجامعها القدر الذي رزقنا مع قصر العمر وكثرة الشواغل والآفات وقلة الاعوان والرفقاء بعض التصانيف . لكنا لم نظهرهُ فانهُ يطل عند اكثر الافهام ويستصغر به الضعفاء وهم اكثر المتزيين بالعلم » . والثالث استعمالهُ في الكتابة ذلك الاسلوب التصويري الخيالي الذي ادى الى سوء فهمهِ في عدة مواضع. فابن رشد مثلاً وهو من اقطاب خصومهِ يتهمهُ بنشر نظرية الصدور في الافلاطونية الحديثة لان الغزالي في كتابهِ (المشكاة) يضرب مثالاً بسيطاً عن انتشار اشعة الشمس ليوضح مرماهُ . ويتهمهُ موسى الزبوني الفيلسوف اليهودي بعدة مؤلفات ، لم تصلنا ولكن

لا يمد ان يكون اعداؤهُ قد دسوا لهُ بعض الآراء في كتبهِ كما فعلوا مع فخر الدين الرازي وغيره في جدلهم الديني المعروف

ويجاري القدماء بهذا الشك في صحة تصوف الغزالي بعضُ العلماء الحديثين مثل غوشه Gosche الالماني ، الذي يقول بان الغزالي لم يكن مخلصاً فيما قالهُ في كتابهِ المنقذ، وانهُ مجرّد دفاع مصطنع لاهل العصر الذين كانوا يشكون في سلامة معتقدهِ كما رأيت. بيد ان مكدونالد Macdonald وهو من مستشرقي الاميركيين وقد خصص جانباً كبيراً من حياتهِ لدراسة حياة الغزالي ينكر مثل هذه التهم ويدافع عنهُ فيقول «ولاصحة البتة في قول البعض بان الغزالي خرج على الفلسفة بعد ان اهتدى بنورها مدة ، لانهُ لم يدرس الفلسفة بالحقيقة الاّ بعد ان ابتدأت شكوكه ، ولم يكن في يوم من الايام ذلك الطالب الفاتر كابن سينا ، فهو لم يخضع كامل عقلهِ للفلسفة مطلقاً . واما القول ايضاً بانهُ كان مرائياً في عقيدتهِ ، لهُ فلسفة خصوصية يقتصر في نشرها على القلائل، ويموّه على العوام بتمسكهِ بالدين وقواعده ، فقول لا اساس لهُ من الحقيقة . وذلك لان تطورهُ الفكري يميل بهِ بل يحتّم عليهِ اتباع تلك الغاية التي سعى اليها من التفتش والاتصال بربهِ مباشرة . واما ان يتخذ التقليد سلطة فذلك مما لم يتفق ، مع عقليتهِ في بداية شكه، فكيف يلجأ اليها بعد ما ابتلاهُ من صروف التردد والارتياب[1]»

التوفيق بين العلم والدين

والسبب لاثارة هذا الشك في اخلاص الغزالي ، على ما نظن ، محاولتهُ ان يوفق بين العلم والدين في كثير من المواضع في مؤلفاتهِ . الامر الذي حمل بعض المطلعين عليها على الظن بانهُ يراوغ فيما يعتقدهُ . والحقيقة ان الغزالي كان قد صرف مدة في دراسة الفلسفة توغل في اثنائها بين المبادئ الفلسفية وتعاليمها المختلفة حتى تأثر بها عقلهُ واصبح من الصعب حتى ومن المستحيل ان لا يعلق بعباداتهِ شيء منها رغم ارادتهِ ومهما كانت الغاية التي درس الفلسفة من اجلها . وفي مقدمة السيد المرتضى الزبيدي لكتابهِ (اتحاف السادة)وهو اشهر شرح «للاحياء» ،استعارة وجيزة اقتبسها عن السبكي في دفاعهِ عن الغزالي هي في نظرنا اجمل واصح تعبير لهذا التناقض الذي تصادفهُ بعض الاحايين في مطالعة الغزالي والذي ادى الى مثل ما قدمنا من الشك في اخلاصهِ.

(١) راجع مجلة جمعية المستشرقين الاميركية ج ٢٠ ص ١٠٠

فهو يشبّه الغزالي بمجاهد غيور ، كرّ على الكافرين ، وما زال في محاربتهم حتى هزمهم الاّ انهُ كان قد تلطخ بدمائهم الرجسة ، فحاول تطهير ثيابهِ ليتقرب الى الله بالصلاة غير أن علماء المسلمين لا يجمعون على انهُ وفق الى هذا التطهير . وفي ذلك اعتراف ضمني من السبكي عما كان يحوم حول الغزالي من شكوك

الغزالي وهيوم

والغزالي في كتابهِ «التهافت» لا يكتفي بدحض آراء الفلاسفة فيما اختلف عليهِ معهم من المسائل فحسب . اذ تراهُ في تقدم هذا وعرضهِ لآرائهِ يميل الى الشك في سلطة العقل نفسه . بل هو يكاد ينكر قدرتهُ مطلقاً ولو تحفّظ فلم يصح بذلك صراحةً .وهذا ما تعثر عليهِ حين تتبع مجرى الكتاب العام او تتلمس غايتهُ الرئيسية . فالغزالي في تحطيمهِ لآراء الفلاسفة بشأن قانون العلية ، يسبق هيوم Hume الفيلسوف المشهور بسبعة قرون،فهو يثبت بالجدل والمنطق على عادتهِ اننا لا نعرف عن العلة والنتيجة شيئاً، وان كل ما نعرفهُ هو ان الاشياء يتبع بعضها البعض الآخر . بيد ان الغزالي شأنهُ حينما قابلناهُ بديكارت الافرنسي لم يلجأ بعد ذلك الى سلطة العقل المجرد كما فعل هيوم بل استسلم للوحي والالهام

الغزالي وكانت

وهنالك امر آخر تلاحظهُ عند درسك لكتابات الغزالي وخصوصاً «التهافت». فقد يتراءى لك انهُ في ابحاثهِ عن اللانهاية كالازل ودوام العالم ، يتدرج ببراهينهُ الى ما لا حد لهُ ثم يبلغك نقطة في الجدل ترى انك تستطيع بها ان تفهم الامر على وجهين، يناقض الواحد منهما الآخر . على اننا لا نقول بان الغزالي مدين بهذا الرأي وكل ما نبديه هو ان الغزالي يتسم بهذا المظهر في ابحاثهِ لانهُ يكيف السلسلة الواحدة من التفكير والمنطق لترصلك الى نتيجتين متباينتين . فان صدق هذا التخمين وهو معقول ، كان الغزالي من اتباع مذهب تباين المبادئ وتناقضها او ما يسمونهُ (Antinomianism) ويكون بذلك قد اشار الى عجز العقل المجرد ، فسبق كانت Kant الفيلسوف الالماني الذائع الصيت في موضوع كتابهِ المشهور (نقد العقل المجرد) كما سبق ايضاً ديكارت وبسكال وهيوم على ما رأينا [1]

القدس شكري مهتدي ب . ع

(١) راجع (مفكرو الاسلام) ج ٤ ص ١٧٣